التداولية قراءة في المفاهيم الإجرائية والأبعاد الجمالية

أد: مكيكة محمد جواد

جامعة ابن خلدون تيارت.

تنطلق التداولية في مشروعها الذي يبارح كل ما هو ثابت وسلطوي، من الأفكار والأليات، نحو منحى جديد يسعى إلى تحقيق التماس والتقاطع مع عدد من الحقول المعرفية، والنقدية، والأدبية على حدّ سواء، لا سيما فيما يتعلق بحقل اللسانيات عموما والتعليمية بشكل خاص، إنه مشروع يحاولة ابتكار رؤية جادة، تبارح " الانغلاق الوصفي الذي عرفته مع اللسانيات البنوية"[1] وهو انغلاق دون شك كرس من طبيعة المنحى التواضعي للّغة، الأمر الذي جعل التداولية وأحالها إلى مجرّد « وصف للعلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها، وبين الدالين عليها»[2] كل هذا قصد خلق هذا النموذج المعرفي الذي باتت التداولية اليوم مرهونة بضرورة تحيين آلياته وإجراءاته، وكذا الأهداف والغايات، خاصة ونحن نعلم أنّ التداولية باتت اليوم علما جديدا للتواصل والاستعمال اللغوي بين الأفراد، مع الوقوف على صنوف من المقاصد، بما في ذلك قصد المؤلف والنّص والقارئ، فلكل هويته وقصده وهدفه لخلق عوالم جمالية من التخييل والتشكيل، وهو نموذج حي من الصراعات الفنية التي تمثل مظهرا من مظاهر خروج الدرس التداولي من ضيق الإجراء وتجريد الآليات، هذا الضيق والإكراه الذي جعل القصدية، « لا تتجلّى إلا من خلال الاتصال اللّغوي في مقام معين»[3] . وبهذا تكون التداولية من منظور هذا الطرح القديم، غير قادرة على تجاوز حدود اللغة في نسقها النحوي، وهو أمر جعل التداولية بما تحمله من آليات« وثيقة الصلة بالمنطق، بل اعتبرها باركلي قاعدة منطقية، وذلك من خلال ربطه بين الدراسات اللغوية والمنطقية»[4] لتتحول كلّ هذه التصورات إلى مرونة الرؤية وانفتاح النّص، وهي صراعات تخلقها العلامة في شقّها اللّساني وغير اللّساني، ويصنعها التخييل،

حيث السفر من الرؤية إلى الرؤيا، وحيث معادلة التشكيل اللّغوي، والتمثيل البصري، لا شكّ أنّ الرحلة التي تقطعها التداولية وهي تطارد المعنى، قد باتت اليوم أيضا من أهم التحولات التي أصبح يشهدها هذا الدرس، وذلك وفق تصورات حداثية تبارح هي الأخرى تقاليد البحث المبتذلة، وتلك السبل والمسارات الكلاسيكية التي تقف عند حدود المعنى في ذاته، ليستبدل كل هذا بواقع إجرائي جديد، يزيد المعنى سمكا وفضاء وتفاعلا، خاصة عندما تبدأ رحلة البحث هذه، والتي لا تسعى إلى الوصول إلى المعنى المعلوم، بل يصبح الاحتفاء الحقيقي بمطاردة المجهول، وما يحمله من قيم جمالية، أشار إليها عدد من المفكرين والنقاد، وعلى رأسهم أدونيس، والذي أطلق عليها معادلة نفي المعلوم وإيجابية المجهول، وعلى هذا فقد أصبح البحث عن المعاني عند التداوليين، لا يقف عند حدود التعدد والمساءلات العقيم التي تقدم هي بدورها إجابات من هذا الجنس، وهي إجابات يصبح التأويل فيها أحادي المسلك، الأمر الذي سيحيلنا في الأخير إلى المعيارية والقطعية، التي لا تخدم المشهد النقدي والدرس التداولي في شيء، وتؤدي في الأخير إلى انغلاق النص، ومن هنا انطلقت التداولية متوثّرة بمجموعة من المعطيات المنطقية نحو تبني رؤية جديدة، تحوّلت فيها معايير جماليات المعنى، ليكون أساس هذه المعايير والمواصفات هو البحث عن المجهول أو المسكوت عنه، أو المضمر من المعاني في النصوص الأدبية والاستعمالات اللغوية بشكل عام، وأضحى اليوم رهان هذه المقاربات الجديدة، يصنعه سؤال كيف يقول النص؟ وليس ماذا يقول النص؟ وبعبارة أخرى البحث عن الكيفيات والطرائق التي يتشكّل بها المعنى.

ولعل هذا ما يحيلنا إلى الشعرية، التي استفاد منها الدرس التداولي أيّما استفادة، ذلك أنّ نقطة التماس في هذه الفكرة أو القاسم المشترك في هذا الموضوع تحديدا، يتمثل في كون الشعرية هي ليست مجرد بحث أو مساءلة عبثية لمعاني النص، وإنّما هي قبل كل شيء

بحث عن المكونات الأدبية والخصائص الجمالية التي يحملها النص، وهي رؤية تجعل القارئ في قراءته للنص لا يبحث في المتن، وإنّما في الضفاف والحواشي، على حد تعبير علي حرب، ذلك أنّ هذه المواطن الموجودة في خارطة النص وجغرافيته، هي الأَولى بالبحث والكشف والمساءلة، لأنّها تمثل بؤر التوتر في النص ومواقع الخفوت والهمس فيه، وهنا مربط ورحم كل جمالية يخفيها النص ويداريها الاستعمال التواصلي، فهي بحق تمثلّ مواطن التوهّج في النص الأدبي، ومصادر الحياة والحضور فيه.

وبهذا تكون هذه الرؤية، هي مصدر التحول والاشتغال في الدرس التداولي حيث الانتقال من براثن وجمود الجملة المادة، واستبدالها بالجملة الشحنة، وتجاوز في الآن ذاته للنموذج التخاطبي الضارب بجذوره في المعيارية والمقاييس والضوابط القرائية، التي لا تركن ولا تعلي سوى من صرح النموذج البنائي الصوري، الأمر الذي عزّز وكرّس من روح القراءة التي لا تتعدى الظاهر من اللغة، غير ملتفتة إلى جوانبها الأدبية والفنية، سواء كان ذلك على صعيد النص أو التواصل والتخاطب، وعلى هذا يكون رهان هذا التحوّل قوامه الانتقال والتعدي من الصورية إلى الجدلية، وحيث ثنائيات المتناقضة التي ترتسم فيها ملامح كل ما هو جمالي استطيقي.

معالم في الدرس التداولي

إنّ اعتبار التداولية فرعا من فروع علم اللغة، وأحد أهم إفرازات الدرس اللساني الحديث، يجعلنا نتعاطى معها كونها تمثيل حي للدراسات التي تسعى إلى فهم حقيقة العلامة، سواء كانت لغوية أو غير ذلك، فهما يتجلى ويكتمل من خلال ربطها بمستعمليها، وعلى هذا تكون التداولية هي دراسة عميقة لجوهر هذا النشاط الحاصل بين العلامة ومستعملها، في أي نظام تخاطبي كان، وذلك وفق رؤية مزدوجة تربط بين نظام اللغة الداخلي وسياقها الخارجي، لا سيما السيكولوجي منه، الأمر الذي جعل الدرس التداولي يرتبط بالنظرية

السياقية أيّا ارتباط، ذلك أنّها باتت تمثل الرهان الذي تعوّل عليه التداولية للخروج من إكراهات البنية والكائن، إلى رحابة الممكن، حيث المتحول، وحيث مغامرة البحث عن المسكوت عنه.« يعود استعمال مصطلح التداولية إلى الفيلسوف" تشارلز موريس" انطلاقا من عنايته بتحديد الاطار العام لعلم العلامات أو السيميائية، من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع هي:

النحو أو التراكيب: وهي دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها ببعض.

والفرع الثاني الدلالة: وهي دراسة علامة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

وفرع التداولية: وهي دراسة علاقة العلامات بمستعمليها وبمؤوليها» [5]

وعلى هذا يكون الفرع الثالث تتويجا لتظافر المعطى النحوي التركيبي، مع المعطى الدلالي، ذلك أنّ دراسة العلامات بمستعمليها أو مؤوليها، لا يتّم إلّا من خلال الدراسة الشكلية للعلامة، وذلك ضمن علاقات التداخل والتضافر، ودراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات، وهذا ما يجسّده الفرع أو المستوى الثاني وهو الدلالة.

إلّا أنّ ما يميّز التداولية بشكل كبير، ويجعلها تحدث المفارقة الجوهرية لهذه الفروع، هو الاعتماد على الطرح التداولي كبديل عام، هو « قصور الدراسات الشكلية، وإهمالها لمقاربة اللّغة في تجليها الحقيقي، أي في الاستعمال التواصلي بين الناس، ولذلك يرى" ليفنسون" أنّ الأساس الأول في نشوء المنهج التداولي، كان بمثابة ردّة فعل على معالجة " تشومسكي" للّغة بوصفها شيئا تجريديا أو قصرها على كونها قدرة ذهنية بحتة غفلا من اعتبار استعمالها ومستعمليها ووظائفها، ثم استعرض عددا من الدوافع العامة التي كانت وراء تطور المنهج التداولي، إذ كان منها ما يتعلّق بالتراكيب وتحديد المراجع، ومنها ما يتعلّق بدلالة الخطاب في السياق والتعامل الاجتماعي بين الطرفين»[6] وبهذا تعتبر التداولية مجموع الظروف

الاجتماعية، أساسا" لدراسة العلاقة الموجودة بين الظاهرة اللغوية والاجتماعية، وتعرف بالسياق الاجتماعي للاستعمال اللغوي أو سياق الحال contexte de situation »[7] وعلى هذا فلا مندوحة لتفسير أي نظام تواصلي أو استعمال تخاطبي، إلّا وفق رؤية سياقية يتحدد بها المعنى والدلالة، وعلى هذا تكون الوظيفة الاجتماعية مهمة لفهم نظام العلامات، وطبيعة العلاقات التي تربط بهما، سواء في مستواها النحوي أو التركيبي، ولعلّ هذا ما أشار إليه الدرس اللغوي العربي القديم تحت مقولة مراعاة مقتضى الحال.

كما لا تقتصر التداولية في دراستها للمعنى« بمفهومه الدلالي البحت، بل المعنى في سياق التواصل، مما يسوّغ معه تسمية المعنى بمعـــنى المتكلّـم، فهـي- التداولية- دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه، بدرجة تتجاوز معنى ما قاله»[8] .

وبهذا يكون وقوف الدرس التداولي على مفهوم المعنى، متجاوزا تلك الصورة المبتذلة التي لا تركز سوى على المفهوم الدلالي، لذلك يكون الحديث عن المعنى في إطارها التواصلي، وما يحيط به من حيثيات وأبعاد، أولوية لتحديد إجراءاته وأبعاده الجمالية والتأويلية، ولتكون ركيزة هذا البحث عن هذا النمط من المعاني(المعاني التواصلية) منطلقة، ومتأسّسة على سؤال جوهري، قوامه: هل تمكّن المرسل من إبلاغ الرسالة؟ وإفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله أو المعنى الظاهري؟

ذلك أنّ محاولة جعل المرسل إليه يقف على بواطن الخطاب، لا تستلزم الاعتماد على ألفاظ مباشرة أو جاهزة تتكيّف مع طبيعة الكلمة أو السياق، وإنّما قد يعتمد هذا الخطاب على إشاريات يقاس بها« تكوين الخطاب ومعناه وقوته الإنجازية» [9] الأمر الذي يجعل العملية التواصلية تقارب زوايا عدّة، تكشف في الأخير عن عدد من البنى النصية بجميع ما تحمله هذه الأخيرة من إشارات وعلامات وروابط وتمفصلات، تحيل إلى عدد من الرؤى

اللسانية والخلفيات الفلسفية، التي تتكاتف في كليتها لتخلق نمطا تخاطبيا، يكشف دائما عن قوة إنجازيه و إبلاغية، يرسمها التأويل كمعلم من معالم الازدواجية والتعدد الدلاليين.

ولا يتأتى كلّ هذا إلا بعد أن استطاعت التداولية، أن تكون تمثيلا حيا وناجحا للحاضنة التي بمقدورها أن تحتوي عددا من المعطيات والآليات، كالسياق التواصلي والبنية التخاطبية وأفعال الكلام والسلالم الحجاجية، وغيرها من معالم المنهج التداولي.« فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل تستوعبها جميعا، وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليلية»[10]

ومن هنا يكون هذا الانفتاح سببا لجعل المعنى في الدراسات التداولية يقع تحت مستويات ثلاث« 1- المعنى اللغوي: وهو المعنى المأخوذ من دلالة الكلمات والضمائر والجمل.

2- ومعنى الكلام: وهو المعنى السياقي.

3- المعنى الكامن أو الموجود بالقوة force: وهو معنى المتكلّم»[11]

وأمام هذا المد والجزر من التعريفات، والمعالم المختصرة، و التي تأسس عليها الدرس التداولي، فإنّ أوجز تعريف وأقربه للقبول هو« دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction ، لأنّه يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول négociation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي واجتماعي ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما» [12]

إنّ عناية الدرس التداولي بهذه المستويات الثلاث، والتي باتت تمثل لملمة لشعث الدرس اللغوي بجميع مناحيه وأبعاده، مرورا بضرورة الوقوف على الجانب الاستعمالي للّغة، التي تأكّدت من خلاله فكرة أنّ المعنى في التداولية أو خصوصية التواصل والتخاطب،

أضحت اليوم تجاوزا للثائية المعيارية التي لا تخرج عن الرسالة والمرسل إليه، لتعود من جديد وتضمّ طرفا ثالثا، وهو المرسل، طالما أنّ المعنى اليوم أصبح نطفة أمشاج متقاسمة بين المعنى المادي والاجتماعي واللغوي، كلّ هذا لرسم الطريق نحو المعنى الكامن أو المعنى الذي بات اليوم يمثل رهان الأبعاد الجمالية والفنية في النصوص الأدبية، ومن هنا جاءت فكرة موريس الذي رأى أن التداولية « تعنى بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها، فالدراسة التداولية تهتم بدراسة ضمائر التكلّم والخطاب وظرفي المكان والزمان(الآن – هنا) والتعابير التي نستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل»[13]

إنّ الحديث عن التداولية باعتبارها« علم استعمال اللغة في المقام كما تظاهر على القول بذلك كثير من اللسانيين وفلاسفة اللغة»[14] سيجعل من الاجراء التداولي بناء ورصدا لمعادلة الربط والتداخل بين اللغة باعتبارها بنية لغوية، وبين اللغة في مجال استعمالها وسياقات التخاطب فيها،« فالتداولية ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي، أو علم يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنّها علم جديد للتواصل، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره»[15]

وعلى هذا تكون« مقدرة المتكلم حسب منظور النحو الوظيفي قدرة تواصلية" بمعنى أنّها معرفة القواعد التداولية(بالإضافة إلى القواعد التركيبية والدلالية والصوتية) التي تمكن من الانجاز في طبقات مقامية معينة، وقصد تحقيق أهداف تواصلية محددة في إطار السعي إلى تحقيق ما أسميناه بالكفاية التداولية...»[16]

تقدم التداولية رؤية عميقة ودقيقة تخص البحث اللغوي أو اللساني من الناحية التواصلية والتخاطبية، فهي بحث في السنن و القواعد والقوانين التي تخص لغة التخاطب، وكأنّ

التداولية من هذا المقام طرح لسؤال فلسفي لطالما ارتبطت به و بالفلسفة التحليلية وهو« كيف ننجز الأشياء بالكلام»[17] وهذا ما يوضّحه أوستن بقوله« فنحن في الكلام ننجز الأشياء، أي نخرجها من حيّز العدم إلى الوجود حسب أوضاع ومواقف»[18]

وعلى هذا يكون نتاج هذا التحول الذي تنجز به الأشياء، فتخرج من العدم إلى الوجود، هو تحوّل اللغة من مجرّد« أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل، إلى اللغة كوسيلة للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني، من خلال مواقف كليّة»[19]، هذه المواقف والسياقات المتباينة والمتناقضة أحيانا أخرى، صارت من أهم الأهداف والغايات التي يسعى لتحقيقها الدرس التداولي، وذلك من خلال تقويض وهدم ودحض مبدأ الأحادية والثابت، أو ما بات يطلق عليه اليوم بالحقيقة المطلقة، ذلك أنّ التداولية، هي في ثورتها على هذه الثوابت تحقيق وبناء في الآن ذاته« لفضاء الاحتمال والممكن»[20]

مباحث في الدرس التداولي

«يكاد الباحثون يتفقون على أنّ البحث التداولي، يقوم على دراسة أربعة جوانب هي: الإشارة، والافتراض السابق، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية.

1. **الإشارة:** في كلّ اللغات، كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه، ولا يستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل:" سوف يقومون بهذا العمل غدا، لأنّهم ليسوا هنا اليوم" وجدتها شديدة الغموض لأنّها تحتوى على عدد كبير من العناصر الإشارية التي يعتمد تفسيرها اعتمادا تاما، على السياق المادي الذي قيلت فيه، ومعرفة المرجع référence الذي تحيل إليه، وهذه العناصر هي: واو الجماعة، وضمير جمع الغائبين هم، واسم الإشارة هذا، وظرفا الزمان غدا والآن، وظرف المكان هنا، ولا يتضح معنى هذه الجملة إلّا إذا عرفنا معنى ما تشير إليه هذه العناصر»[21]، وبهذا يكون للإشارة دور فاعل في

فهم العملية التواصلية، وتحقيق الوظيفة الابلاغية والافهامية، بين المرسل والمرسل إليه، وذلك من خلال هذه الرسالة، كما أنّ تحديد قيمة هذه الاشارات يخضع لنظام السياق وتمثيلاته داخل العملية التواصلية، فمن خلال هذا النظام يمكن استوضاح الاشارات، وفهم إحالاتها ومرجعياتها.

ومن أهم أنواع الاشاريات، هناك الاشاريات الشخصية- الاشاريات الزمانية- الاشاريات المكانية- إشاريات الخطاب- الاشاريات الاجتماعية.

2. **الافتراض السابق:** « يوجه المتكلم حديثه إلى السامع، على أساس مما يفترض سلفا أنّه معلوم له، فإذا قال رجل لآخر أغلق النافذة، فالمفترض سلفا أنّ النافذة مفتوحة، وأنّ هناك مبررا يدعو لإغلاقها، وأنّ المخاطب قادر على الحركة، وأنّ المتكلم في منزلة الآمر، وكل ذلك موصول بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب...»[22] لا شكّ أنّ الافتراض السابق أو المسبق، بات يمثل ركنا مهما من أركان الدرس التداولي، لأنّ الحديث عن الافتراضات، هو في الواقع حديث عن لعبة المعاني وتحيين النصوص، والبحث عن المغيّب والمجوّف داخل الرسالة التواصلية.

3. **الاستلزام الحواري:**« يعدّ الاستلزام الحواري من أهم الجوانب في الدرس التداولي...لقد كانت نقطة البدء عند جرايس، هي أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كلّ همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات، والعبارات، وما يقصد هوما يريد المتكلم أن يبلغه للسامع على نحو غير مباشر، اعتمادا على أنّ السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن، فنشأت عنده فكرة الاستلزام»[23] يصبّ

الحديث عن الاستلزام الحواري، في صلب المنحى التأويلي للنصوص، والخطابات من الوجهة التداولية، ذلك أن الكلام عن القول والقصد هو عين التعدد الدلالي وجوهر تفجّر المعاني، ذلك أنّ مخالطة القول بالقصد يفتح المجال لاختلاف الرؤى وزوايا النظر، وتعدّد مسارات التأويل ومسالكه، كما أنّ الاستلزام الحواري ينتقل بنا من مستوى الظاهر والصريح، من القول إلى مستوى الباطن والمضمر.

التداولية والتعليمية حدود أم تداخلات

لا شكّ أنّ عددا من التصورات اللسانية القديمة التي ترى تلك القطيعة والهوة بين الدرس التداولي والتعليمية، قد أضحى طيّ النسيان، لاسيما بعد ما طرأ على التداولية من تحولات، باتت تصبّ في جوهر وصميم العملية التعليمية، طالما أنّ هذه الأخيرة تنطلق من وجود مرسل ورسالة ومرسل إليه، الأمر الذي عزّز من قيمة هذا التداخل، هو استقطاب التعليمية لمجموعة من الأفكار التي زادت من ثراء وغنى هذا الدرس، كعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من الحقول، إنّ الحديث عن اللسانيات الاجتماعية، هو قبل كل شيء، حديث عن نجاح مشروع رابط بين اللسانيات وعلم الاجتماع، فجاءت اللسانيات التعليمية ثمرة هذا التلاقح والتزاوج الذي أضحى دفعا مهما وجديدا لكلا الدرسين(التداولية والتعليمية) إذ بدأ الحديث اليوم عن ضرورة إحداث التجاوز، ورسم معالم الخرق، بين ما كانت عليه التعليمية أو المنظومة التواصلية والتخاطبية لدى المتعلمين بشكل عام، فأصبح من الضروري تجاوز ومحو مرحلة التلقين الأجوف والمبتذل والمفرّغ من القيم التعليمية الهادفة، التي تصبوا بالمتعلم نحو آفاق تعليمية جديدة، تفتح له الأبواب كي يفكر ويفسّر ويعلل ويشرح، بعيدا عن قيود التلقين التي لا تنتج سوى متعلما أو متلقيا آليا لا يعرف سوى - أذكر – استخرج - وعرّف... دون أن تكون هناك لمسة

إبداعية تصنع في المستقبل متلقيا فطنا يقظا دقيق النظر والملاحظة، لتخالف بذلك هذه المعطيات مقولة تشومسكي المقوّضة والهدّامة والتي مفادها« أنّ اللسانيات لا تقدّم أي شيء لتعليمية اللغات»[24] وعلى هذا بات لهذا التداخل دوره وفاعليته في فهم عدد من الحيثيات التي تحيط بالعملية التواصلية، كالوقوف مثلا على معاني الكلمات، ليس فقط من منظور بنائها الداخلي، وإنّما أيضا من أثر السياق الذي يحيل دلالاتها نحو مسارات جديدة، تجعلها تنزاح عن إطار البنية، وقد كان لعلم الاجتماع وعلم النفس أثره وفاعليته في تحقيق هذه المعادلة الجديدة، ناهيك عن مفهوم القصدية هو الآخر، ومعاني الأغراض، وغيرها من المعطيات والتصورات الجديدة التي بات يصنعها هذا التواشج والتعالق، وفي هذا السياق يرى الجيلالي دلاش، أنّ« هناك شعارا واحدا يشغل أهل هذا الاختصاص وهو الملكة والتبليغ، أي تزويد المتعلّم أو المتعلمين بالأدوات التي تمكنهم من التحرّك بواسطة الكلام، تحركا يلائم المقام والمقاصد المراد تحقيقها، إنّ الأمر لم يعد يتعلّق بتلقين بنية نحوية معيّنة، بل إنّه يتعلّق بتوفير الوسائط اللسانية التي تسمح للمتعلم بإجراء اختيار بين مختلف الأقوال وذلك بحسب المقام»[25] في هذا السياق يعتبر محمد مفتاح «أنّ الحالة القصدية يجب أن تكون صادرة عن وعي، ومنقولة إلينا بأفعال لغوية محتوية على نية الدلالة، إذ إنّ بعض الأحداث، أو الحالات لها دلالات لكن ليس وراءها مقاصد، فتراكم الغمام في السماء مثلا، يدل على إمكانية المطر، لكن ليس وراءه قصد»[26] وبهذا تكون اللسانيات التداولية، وهي تؤسس لمنحنى تعليمي جديد، هي في الواقع بحث في هذه الخواص والجوانب والزوايا المعتّمة والدّقيقة والجوهرية التي تمسّ صميم العملية التعليمية، أو المنظومة التخاطبية والتواصلية بشكل عام« فقد يعلن الكاتب عن مقاصد محددّة لما كتب، لكن عمله لا يدلّ عليها، ومن هنا فإنّ المقصدية عند ب.د. يول، ليست ما يعلنه الكاتب صراحة أو ضمنا، وإنّما ما يقصد من خلال استعماله للكلمات»[27] ومن

هنا يأتي السؤال، من الذي يتكلّم؟ ومن خلال من؟ وعمّا يتكلّم؟ ليبدأ صراع المقاصد وصراع التأويلات على حدّ تعبير بول ريكور.

لقد هيأ هذا التداخل لرسم آفاق جديدة، ضمن نظام العملية التعليمية، تداخل وتناصية، سرعان ما بدأت تخلق معادلة مهمة تربط بين اللغة باعتبارها قواعد ونظم ومعايير وقوانين، واللغة باعتبارها مواقف وسياقات، أضحى يتعيّن الآن خدمة القاعدة للموقف الكلامي وليس العكس، « لقد بات أساسيا توسيع مجال مكتسبات من جهة، وقلب ترتيب الأولويات من جهة أخرى، ذلك لأنّ مفهوم التبليغ هو الذي يجب أن يكون الأسبق والمحرك وليس اللّغة، لأنّ الاهتمام بالمتعلّم يعني الاعتراف الكلّي، بأنّ هدفه هو التبليغ لا أحكام اللغة وحذقها، وأنّ هذا الوجه الأخير ليس سوى وسيلة وليس غاية في حدّ ذاته، ووسيلة واحدة ضمن وسائل أخرى»[28] وإذا ما أردنا أن نلملم شعث ما سبق باختصار، فإنّنا سنقول إنّ الحديث عن جوهر القيمة، بين هذا التواشج بين التداولية والتعليمية، يكمن في كون هذا التداخل، جعل العملية التعليمية تبارح الاعتباطي والمبتذل والكلاسيكي من البحث والمساءلات، ليس فقط من حيث تجاوز نمطية التلقين الأجوف فحسب، وإنّما في جعل الملكة التبليغية تمثل ركنا أساسيا لا مناص منه في أي مقاربة حداثية أو جديدة، تمسّ نواة العملية التواصلية بشكل عام.

التداولية والأبعاد الجمالية

إنّ الحديث عن الأبعاد الجمالية، هو في الواقع بحث عن جماليات ما بات يعرف اليوم بالفضاء التداولي، حيث التركيز على الامألوف أو الامتداول، سواء في اللغة أو الاستعمال، وما يطرأ عليه من جماليات أضحت تمثل الآن حقلا خصبا وجديدا يمارس فيه الدرس التداولي مظاهر الجدّة والتحول في طياته، لذا كان من أهم مهام الدرس التداولي

وهو يحفر ويستقي مواطن الجمالية، بأن يبحث «عن أسباب أفضلية التواصل غير مباشر، وغير الحرفي، على التواصل الحرفي المباشر»[29]

وهو بحث تجده يتّجه صوب الهوامش والضفاف، حيث انزلاقات المعنى وانجرافاته، وحيث لعبة الدلالة، التي يقيمها التشكيل، فالجمال كل الجمال في الكيفية التي يخلق بها المعنى ويتشكل، وليس المعنى ذاته باعتباره فعلا أو حدثا منجزا، لتصبح هذه الصورة تمثيلا حيا ومتوهّجا لكل ما هو جمالي وإبداعي وفني في الآن ذاته، وهو ذاته المنحى الذي يسلكه الدرس التداولي اليوم، وهو « مسار يدرس اللغة من الناحية الوظيفية fonction perspective وهو... يحاول أن يوضح جوانب التركيب اللغوي بالإحالة إلى أسباب غير لغوية»[30] ولعل هذا ما بات اليوم يعتبر " أهم ما توصل إليه فينجتاين، من أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، ولكن للغة وظائف عديدة... وليست اللغة عنده حسابا منطقيا دقيقا لكل كلمة فيها معنى محدد، ولكل جملة معنى ثابت بحيث لا تنتقل من جملة إلا إلى ما يلزم عنها من جمل مراعيا قواعد الاستدلال المنطقي بل الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتعدد معاني الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها"[31] لقد أصبحت التداولية رسما لمعالم وملامح مشروع نقدي واعد بالتعدد والتفجّر والتشظّي، ومخلخل لثقافة المركز، ومعلي في الآن ذاته لثقافة الهامش وأسئلة الحواشي المحيّرة، إن التداولية من هذا الطرح باتت لا تنظر إلى الكلمة باعتبارها فضاء معلّقا، أو هيئة معزولة عن سياقاتها وبواعثها، وإنما هي في الواقع تشكيل ونسيج من الروابط والعلائق، ورسم ملغز مثير قد يكون السر فيه حركة إعرابية، أو صفة حرف من الحروف أكثر من المعنى ذاته، الأمر الذي يجعل التداولية تقتحم مسالك ودروب جديدة، قد تكون معتمة وباهتة، ولكنها تشعّ وتنبض بالجمالية واللّذة والمتعة، وهي تمظهرات فنية تصبّ في جوهر ما يبحث عنه القارئ الناقد والمتذوق في الآن ذاته، كل هذا يجعل

التداولية ترتقي نحو مفاهيم وأبعاد نوعية وجديدة، هي محصلة هذا الانفتاح والتلاقح مع حقول معرفية عديدة، أضحت الرهان الذي يعوّل عليه الدرس التداولي، للوقوف على الكائن ورصد الممكن داخل دروب النظام التواصلي

1سعيد جبار، التخييل وبناء الأنساق الدلالية، دار رؤية، ط1، 2003م، ص 33.

2 إدريس مقبول، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011م، ص 04.

3 سامية بن يامنه، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية الجزائر العدد الأول 2008، ص7

4 راضية خفيف بوبكري، التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، 2004م، ص11

5 عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2003م، لبنان، ص45.

6 عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 21.

Jean du bois . dictionnaire de linguistique. Pp. 120- 121 7

8 حسن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 22.

9 المرجع نفسه، ص 22.

10 محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية 2002م، ص10.

11 المرجع نفسه، ص13.

12 محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 14

13 آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ص 29

14 صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، دار صفحات للدراسة والنشر، 2008م، ص11.

15 مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة(الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، 2005م، ص 16.

16 أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء، ط1، 1985م، ص11.

17 أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، تر: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، 1991م، ص05

18 المرجع نفسه، ص 07

19 المرجع نفسه ، ص06

20 فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد العربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، تونس. ص 45

21 محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص15.

22 محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 26.

23 محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 34

24 أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص134

25 جيلالي دلاش، مدخل الى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص 46.

26 محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثاني العربي، بيروت، 1986م،ط 02، ص 164.

27 محمد بازي، التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، منشورات الاختلاف، ط01، 2010م، ص 52.

28 جيلالي دلاش، مدخل الى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ص 48-49.

29 مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م، ص16

30 محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ، 2002، ص12.

31المرجع نفسه، ص41 ـ42

مكتبة البحث

1. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء، ط1، 1985.
2. أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ديوان المطبوعات الجامعية
3. إدريس مقبول، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011.
4. آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة
5. أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، تر: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، 1991

6. جيلالي دلاش، مدخل الى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.

7. سعيد جبار، التخييل وبناء الأنساق الدلالية، دار رؤية، ط1، 2003.

8. صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، دار صفحات للدراسة والنشر، 2008.

9. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2003م، لبنان.

10. فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد العربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، تونس

11. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثاني العربي، بيروت، 1986م،ط 02 محمد بازي، التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، منشورات الاختلاف، ط01، 2010.

12. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية 2002.

13. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة(الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، 2005.

المجلات العربية:

1. راضية خفيف بوبكري، التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، 2004

2. سامية بن يامنه، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية الجزائر العدد الأول 2008

المراجع الأجنبية:

1. Jean du bois . dictionnaire de linguistique. Pp. 120- 121